التقنية والمسألة الأخلاقية

Media technologies and the ethical issue

أ.د. سامر جميل رضوان

Prof. Dr. Samer Rudwan

University of Nizwa

شهد العالم في نهايات القرن العشرين وبداية القرن الحالي ثورة تقنية غير مسبوقة قلبت الكثير من التصورات القائمة حتى الآن عن العالم من حولنا. وما كان غير قابل للتصور أصبح الآن من البديهيات في تعاملاتنا اليومية، وأصبح ما يحدث في أي مكان من العالم يؤثر على أصغر بقعة على الأرض. وأصبحت التقنية هي الموجه الرئيسي لكثير من تعاملاتنا اليومية من أبسط الأمور إلى أشدها تعقيداً. وأصبحت تشكل بديلاً للواقع الحقيقي. ويكاد الحد الفاصل بالنسبة للكثيرين أن يصبح حداً هلامياً.

وحدث كل ذلك في عالم تجتمع فيه جميع أشكال التناقضات، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كما تجتمع فيه في الوقت نفسه الكثير من أشكال التقارب الإنساني من ناحية أن أصل البشرية واحد وأننا جميعاً نتشارك في إنسانيتنا.

كانت التقنية بجميع أشكالها وسيلة من الوسائل التي يتم استخدامها في وجوه شتى لتحقيق غايات محددة وهي من هذه الناحية أداة مسخرة لا يمكن تقويمها إلا من خلال استخداماتها.

ومما لا شك فيه أن هذه التقنية بإمكاناتها الهائلة واجتيازها الحدود المادية بين الدول والحدود النفسية بين البشر قد صغقت البشرية كلها وحركت الكثير من المياه الراكدة في أعماق النفس البشرية وأصابها الكثير من المجتمعات بتشتت في الهوية التي كان يعتقد حتى الآن برسوخها وثباتها.

قادت التقنية إلى توسيع حدود التصور المكاني والزمني والنفسي للإنسان، فأصبح قادراً على أن يكون في أكثر من مكان وفي عدة أزمنة في الوقت نفسه وأن تمتد مشاركاته الوجدانية بالمعنى الافتراضي إلى أبعد من حدود كيانه النفسي الاجتماعي المقيد مادياً.

وأهم ما يميز هذه الثورة التقنية هو أنها متاحة للجميع وفي أي مكان من العالم ولا تحتاج إلى تكلفة كبيرة مما فتح المجال واسعاً لانفجارات بركانية تظهر الغث والسمين.

طرح الكثير من "السيناريوهات" المتشائمة حول التقنية واستخداماتها وتأثيرها على القيم والعلاقات الإنسانية، وبالمقابل هناك الكثير من الآثار الإيجابية الملموسة للتقنية التي لا يمكن نكرانها. إلا أن تركيزنا سينصب هنا على الجانب الآخر لهذه التقنية المتمثل في كونها وسيلة من

وسائل بروز "الهوية المزيفة" التي تطرح الكثير من المسائل المتعلقة بالجوانب الأخلاقية والقيمية.

تشكل الجماعة المرجعية المباشرة التي ينتمي الفرد إليها عامل حماية وضغط على الإنسان وتدفع سلوكه الاجتماعي نحو التلاؤم مع المعايير الاجتماعية السائدة، فلا يتصرف المرء بما قد يسيء إلى سمعته ويسبب عزله وانتقاده من الآخرين. فهي جزء من هوية الإنسان وهويته تتحدد من خلال الجماعة التي ينتمي إليها. فذاته حاضرة في كل أشكال التعامل والتفاعل، وتهشم هذه الذات يعني بالنسبة للفرد فقدان لهويته، وانتماءه النفسي وهو أمر لابد للفرد من أن يحسب له ألف حساب قبل أن يتصرف بما يمكن أن يزعزع هويته.

في عالم التقنية الافتراضي تراجعت الهوية الاجتماعية للفرد إلى الخلف، وتقدمت عليها "الهوية الزائفة". فعلاقة الإنسان بالإنسان لم تعد مباشرة وإنما عبر أجهزة -هاتف محمول-انترنت- كمبيوتر...الخ، يستطيع المرء التحكم بها بأوجه عدة، يغلقها ساعة يشاء، يظهر باسم مزيف، يقدم نفسه للآخر بالشكل الذي يريده، ويتعامل معه بالطريقة التي يختارها دون خوف من فقدان ماء الوجه والفضيحة والخسارة والانتقاد الاجتماعي وبشكل خاص دون تحمل المسؤولية. وفي لحظة يستطيع أن يمسخ هذه "الهوية المزيفة" ليخترع "هوية مزيفة" أخرى، منتقلاً من عالم إلى آخر، ومن مكان إلى مكان دون أن يشعر بأدنى التزام أو مسؤولية عما "فعله" في العالم الافتراضي، ودون الإحساس بالذنب عما يمكن لتصرفه أن يكون قد قاد إليه. ويتحدث باك (Baacke,1987) عن "الأنا-المتكلفة" *recherché-Ego*، عن "الأنا-الصدفة"

من المؤكد لم يتوفر أبداً عصر لم تكن في يوم من الأيام فرص التعليم والبناء الفردي للحياة كبيرة بالنسبة لطبقات واسعة من الناس كما هو اليوم. وينعكس هذا باطراد من خلال محاولات صنع لمسات شخصية في أسلوب الحياة لدى فئات كبيرة من الناس وفي البحث العميق عن تأثيرات جديدة باستمرار وإمكانات إشباع جديدة. وكثير من الناس يتجنبون مشكلات الهوية لديهم، على المستوى الجمعي أو الفردي سواء، بطرق مختلفة فمنهم من يخضع كلية ويربط نفسه بصورة ساذجة ذات مظهر واهم بالثقة بسلطة ما. في حين نجد آخرين يعانون من عدم إيجاد أي سند في وجودهم الذاتي، وهؤلاء هم أقرب لأن يصبحوا صورة مشوهة للتناقضات الخارجية. ويتجلى هذا في السلوك الفردي من خلال البحث عن الأمان والخوف في الوقت نفسه من الارتباط والمسؤولية.

^١ المختارة أو المنتقاة بدقة، الرائعة التي يتم عرضها.

وباطراد تنشأ أنماط من الناس يجعلون من التناقض مبدأ حياتهم إلى حد ما يبحث عن مصلحته الخاصة، ينكر في أحد المواقف ما كان عليه في موقف آخر، من دون الإحساس الكبير بالذنب أو الضياع. الهوية تنبثق في السلوكيات أو الأدوار التي يتخذها المرء في البيئات المختلفة من دون المطالبة بالالتزام والعمق الشخصي. (Conzen, 1996).

يرى إيركسون أن الهوية لدى الفرد ترتبط بموقف أخلاقي أو مع خبرة دينية أو التزام إيديولوجي، يمنح الحياة معنى وعمق. فالإنسان لا يتحول إلى مخلوق اجتماعي إلا عندما يتبنى القيم الأساسية الدينية والأخلاقية لثقافته في ضميره، التي تمنحه القوة والتوجه الداخلي وبشكل خاص في المواقف الوجودية الاستثنائية والحاسمة. ومن هذا يمكن الاستنتاج أن "الهوية الزائفة" ترتبط بموقف أخلاقي غير أصيل أيضاً، وتدين وهمي مزيف وتحلل عقائدي.

يرتبط النمو الأخلاقي عند الفرد بنشوء الضمير الفردي وتطوره، حيث تبدأ الجذور الأولى للضمير في سن الرضاعة بما يعيشه الإنسان في علاقته بالأم وبوالديه معاً فيما بعد. وفي حالة النمو السوي يتم إثراء هذه الأخلاق عبر النمو من خلال المثل العليا المتوفرة للإنسان في بيئته بالدرجة الأولى والتي يمكن أن تقوده إلى تنمية التزام مثير للدهشة بالقيم والمبادئ الأخلاقية. وبالطبع فإن هذا النمو الأخلاقي لا يسير دائماً بالصورة المثالية. فالتناقضات الموجودة كبيرة، سواء على المستوى الأسري أم الاجتماعي أم على مستوى الأنظمة السياسية في ظاهر من النفاق السياسي لم يعرف التاريخ له مثيلاً. وهناك انهيار سريع للقيم التقليدية في كثير من المجتمعات. وما نمو الحركات العنيفة المتطرفة وزيادة القمع الاستبدادي، واتساع نطاق التشكيك بالقيم الأخلاقية إلا مظاهر لهذا الانهيار.

وفي ظل هذا يمكن أن يتجلى الجانب الأخلاقي في استخدام التقنية في أشد صوره. فالاستخدام الأخلاقي للتقنية يشترط أن يكون الفرد على وعي بالمسؤولية التي عليه تحملها، تجاه نفسه أولاً وتجاه الآخر ثانياً. وتكمن الخطورة هنا في جانب التواري خلف التقنية في الدخول في أشكال خطيرة من المغامرات غير المحسوبة العواقب والترويج لأفكار هدامة بعيدة عن التسامح والإنسانية ولا تتبع قوله تعالى: ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)) (النحل: ١٢٥).

ومجاعة التطور التقني الحديث أصبحت بحاجة إلى تسارع في المواكبة التربوية القيمية-الأخلاقية ومراجعة مستمرة بحيث لا تصبح القيم الأخلاقية صارمة جداً تكبح النمو الإنساني وتحول الأشخاص إلى عبيد لأفكارهم وتصوراتهم الجامدة ولا تهتز القيم الأصيلة وتنبذ وترفض ويشكك فيها بطريقة انفعالية.

فالمناهج التربوية ينبغي أن تواجه هذا الأمر، وأن تجعل من تدريس القضايا الأخلاقية المرتبطة بالتقنية واستخدامها الأمن جزءاً أساسياً من المنهج الدراسي، والتوعية بإمكاناتها وحدودها. وفي الوقت نفسه تطوير القوانين التي من شأنها حماية حقوق الفرد والجماعة في الاستخدام الأخلاقي للأمن والمفيد للتقنية.

فعلى الرغم من دخول التقنية جميع مجالات حياتنا في البلاد العربية، إلا أن التعامل معها ظل على الأغلب تعاملًا تقنيًا بحتًا، على اعتبار أنها منتجات تقنية كالثلاجة أو الغسالة أو مولدة الكهرباء، ومظهر من مظاهر التطور الحياتي، لتسهيل حياة البشر أو نوع من الرفاهية أو التقليد. وظلت إمكاناتها كوسائل للتواصل الإنساني غائبة عن وعي الكثيرين، إلى أن تم نتيجة التطورات العالمية فيما يتعلق بالإرهاب والفكر الاستبدادي والتكفيري ونتيجة للمشكلات الاجتماعية والنفسية في مجال العلاقات الإنسانية إدراك مدى تأثيرها على حياة البشر. وهو تأثير إيجابي لا شك، لكن ككل المنتجات التقنية والإنسانية هناك أيضاً جوانب سلبية قد تكون كارثية في بعض الأحيان. وقد قاد هذا الإدراك إلى غلبة الجانب الأمني في التعامل مع التقنية من خلال المنع والحجب، وهو أمر ليس له الكثير من الفاعلية على المدى البعيد، وسيظل الأمر كمن يحارب طواحين الهواء.

ومن ثم فإن التعليم مطالب قبل كل شيء بجعل الجانب القيمي الأخلاقي في الاستخدامات التقنية التواصلية جزءاً من المنهج التدريسي، وتنمية الحس بالمسؤولية تجاه التعامل مع الآخرين عبر التقنية سواء كانت هاتفاً أم انترنت أم غيرها من أشكال التواصل، وأن حق الفرد في امتلاك التقنية يتطلب إدراك الفرد واجباته الأساسية تجاه استخدامها، وتحمله المسؤولية في جوانبها كلها عن استخداماتها الخاطئة، حتى وإن كان يتوارى خلف "هوية مزيفة".

التواصل الفضائي

ظل التلفزيون منذ اختراعه أداة ترفيه مهمة ووحيدة أحياناً في كثير من المجتمعات وخصوصاً في المجتمعات العربية. كان عدد الأقنية محدوداً، وساعات البث وكذلك الفقرات والمواضيع المطروحة، ولا خيارات كثيرة متاحة تجتمع الأسرة والأقارب حوله ويجدون من خلاله مواضيع للحوار فيما بينهم. والتلفزيون والراديو قبله من وسائل الاتصال وحيدة الاتجاه، حيث يتم بث الرسالة الإعلانية باتجاه المتلقي فيتلقاها بإيجابية أو سلبية ولا مجال للتفاعل بين المرسل والمستقبل. ناهيك عن أن المحطات الأرضية المشبعة بالإيديولوجيا التي لا تحب سوى سماع صوتها لنفسها كانت تعد مؤذية للمتلقي وتسبب له التشويش وتدفعه في النهاية للاستغناء عن الجهاز كلية والبحث عن أشكال أخرى من التسلية. وجاءت تقنية الفيديو لتكسر هذا الاستبداد

التلفزيوني لفترة طويلة لكنها ظلت في جوهرها وسائل أحادية الاتصال. ومع ظهور الفضائيات حصل انقلاب كمي، فأغرق الجمهور بكم هائل من المحطات، والتي باتت تعتمد التفاعل المباشر من خلال تكامل التقنيات مع بعضها مما أتاح المجال لشريحة كبيرة من الناس في التواصل والتفاعل المباشر وإيصال صوتها إلى شرائح أوسع وبطرق مختلفة.

وهنا تطرح مسألتين: الأولى مسألة مفهوم الحرية الإعلامية والأخلاق المهنية لصاحب الرسالة -أفراداً وحكومات- ورأس المال المسير سواء كان فردياً أم حكومياً أيضاً ومفهوم الاستثمار الإعلامي والرسالة الإعلامية.

فتحت شعار الحرية الإعلامية نجد الترويج لكثير من القيم والأفكار الهدامة، البعيدة عن الواقع والتي لا تسهم إلا في مزيد من الاغتراب والتشتت في الهوية لشرائح كبيرة من الناس وبشكل خاص الشباب. وتتساوى في هذا محطات "الدعارة المبطنة" و "محطات الشعوذة والدجل" ومحطات "النفاق" ومحطات "الردح الجماهيري" ومحطات "الاستبداد المذهبي والعقائدي" ومحطات "السلب والنهب". فجميعها يحكمها المبدأ النفسي نفسه بغض النظر عن شكل تجلي رسالتها الإعلامية واعتقادها بأنها تقف على النقيض من المحطات الأخرى. وجميعها لا تهدف إلا إلى ترسيخ ما تدعي أنها تحاربه، سواء كان الجهل أم التخلف أم المذهبية أم التطرف أم التعصب الأعمى أم الاستبداد الفكري، وليس لها أية علاقة بمفهوم الحرية المرتبط باستمرار بمفهوم المسؤولية والقدرة على تحملها تجاه الذات والآخر والتي هي أساس الحكم على النضج النفسي والاجتماعي للكائن الإنساني كمخلوق ميزه الله سبحانه وتعالى على المخلوقات كافة. لكن بالمقابل حتى تلك المحطات التي تدعي أنها تمارس الحرية المضبوطة لا تمثل حلاً بديلاً وتتحرك على المستوى نفسه وفي أفضل الحالات فهي محطات تحب أن تستمع إلى صوتها دون الاهتمام بمن يسمعها.

ويرتبط بذلك الدور القذر الذي يلعبه رأس المال المسير والمتواطئون معه من متسولي الفرص والمنافقين الإعلاميين وردّاحي الفضائيات من "محليين" و "مفكرين" و "أنصاف المتعلمين" وغيرهم من الجمهور الذي يتم استنجاره لتأييد قضية ما أو تسخيف فكرة أو لتأليب الناس ضد قضية ما، والذي -أي رأس المال- لا يحسب استثماراته من منطق الأخلاق وإنما من منطق الربح والخسارة. ومن هذا المنطق يصبح الإنسان أداة وليس هدفاً، يتم طحنه وسحقه باستمرار تحت أهداف وشعارات لا علاقة لها بما تدعي أنها تمثله على الإطلاق.

فتحت شعار حرية الاستثمار تتم ممارسة أشد أشكال الهمجية الفكرية والاستلاب النفسي والقهر الاجتماعي دون أي وعي بالمسؤولية وإدراك أن السحر سينقلب على الساحر في يوم من الأيام.

تعكس استخدامات التقنية والتعامل معها روح العصر الذي نعيشه، فإذا كان الاستخدام حضارياً في غالبيته فهذا مؤشر على أن المجتمع المعني في تطور وارتقاء وإن كان الاستخدام غير ذلك فهو يمثل حالة من الانحطاط الفكري والقيمي والأخلاقي. والتقنية بحد ذاتها ليست مسؤولة عن هذا إلا أنها تمثل المرآة التي تنعكس من خلالها أمراض المجتمع وانحرافات، وتعزز بدورها استمرارية هذه الحالة.

الواقع المتوسع Expanded reality

ما تقوم به شبكات التواصل الاجتماعي يتم التعبير عنه بمفهوم "الواقع الموسع augmented reality» أو (الواقع المعزز enhanced reality) أي توسيع إدراكات الحواس للبشر، وهذا يعني أن الناس ينظرون إلى عوالم الإنترنت على أنها حقيقة ولكن التساؤل المطروح إلى أي مدى هي حقيقية؟ العالم الافتراضي هو امتداد واستمرارية للفضاء الاجتماعي في المجال الرقمي وينعكس الواقع الاجتماعي في الشبكات الاجتماعية عبر الإنترنت. ومن ثم ف ومن ثم فإن الإنسان قلما يكذبون في الشبكات الاجتماعية لأنهم على الأرجح ليس لديهم رغبة قوية في التظاهر، أو على الأقل لأن لديهم حاجة أكبر لإظهار أنفسهم كما هم والتعبير عن الذات الحقيقية. فقد وجدت الدراسات أن من ناحية أخرى، من الصعب للغاية التظاهر في الملفات الشخصية على الإنترنت: فالكثير من المعلومات عن الملف الشخصي يأتي من أشخاص آخرين في الشبكة الاجتماعية (مثل المشاركات والتعليقات) وهؤلاء الشركاء الاجتماعيون يقدمون تغذية راجعة حول تقديم الذات الخاصة بالشخص نفسه. كما وجدت إحدى الدراسات أنه يمكن بناء أحكام دقيقة حول الشخصية من خلال الملفات الشخصية في الشبكات الاجتماعية. إلا أن هذا لا يعني وجود الكثير من الخدع والتزييف على الإنترنت.

ومن المؤكد أن الأفكار المطروحة في هذا الإطار تحتاج إلى الاستكمال والإثراء. إلا أنه من المؤكد أن العلوم الإنسانية وبشكل خاص علم النفس وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع مازالت في الوطن العربي قاصرة عن مواكبة هذا التطور وفهم الآليات النفسية والاجتماعية الكامنة فيه والفاعلة وهي مدعوة لأن تمارس مسؤولياتها، انطلاقاً من التحليل العلمي الدقيق والحيادي للجوانب المتعلقة بالتغيير الطارئ على منظومة القيم الأخلاقية وبحث سبل تعزيز القيم الأخلاقية وتنمية الوازع الديني الأصيل على مستوى الفرد والجماعة وآليات ممارستها السلوكية في الواقع.